بعثة الرسول ﷺ بدين الإسلام

د. سليمان جادو شعيب (*)

في ذكرى مولد النبي الكريم ﷺ يتحدث الكاتب عن بعثة النبي ﷺ وكيف بدأ أمره ﷺ، فهو دعوة إبراهيم، وبشارة موسى، ورؤيا أمه آمنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أذن الله العلي القدير بمشرق النور، والأسوة الحسنة، ميلاد رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين دعوة إبراهيم -عليه السلام- وبشارة موسى وعيسى -عليهما السلام- منذ أنزلت التوراة والإنجيل.

ولد الهادي محمد صلوات الله وسلامه عليه يتيمًا يتولاه ربه، ويصطنعه على عينه، فجنبه زلات الشباب ولهو اليافعين، وألقى عليه محبة منه، تحفُّ به عناية الرحمن، وتحرسه آيات ربه من همز الشيطان، فشبَّ طاهرًا مطهرًا من كل إثم، مبرأً من كل سوء، وأدّبه ربه فأحسن تأديبه، حتى اشتهر بالبر وعُرِف بالصفاء والنقاء، وأسماه أهله وعشيرته: الأمين، حتى إذا اكتمل، وبلغ أشده واستوى، أتاه ربه الملك بنور الهدى، فاختاره ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾

(الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

وبُعِث ﷺ برسالة الإسلام الخالدة، التي ما لبثت أن انتشرت في أقطار الأرض، فعمَّ الخير والهدى والنور في أرجاء الدنيا كلها، وجاءت بعثته -عليه الصلاة والسلام- لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الاستبداد إلى نور العدل، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والفلاح.

وقد ذكَّر الله سبحانه وتعالى الناس جميعًا، بهذه النعمة الجليلة في آيات كريمة عديدة، منها قوله عزَّ وجل: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

(*) باحث وناقد ومحاضر بوزارة الثقافة، وعضو المنظمة العالمية لخريجي الأزهر الشريف.

والآية الكريمة هنا تعني أن الله تعالى أنعم على المؤمنين من العرب بنعم عظيمة وعطايا وافرة جزيلة، إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم، يتلو عليهم آيات القرآن الكريم، ويطهرهم من أوضار الشرك، وفساد الأخلاق الذميمة، ويعلمهم أيضًا القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل بعثته عليه الصلاة والسلام لفي ضلال وجهل.

وقد كان ميلاده ﷺ استجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حيث دعا ربه قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩)، وتصديقًا لبشارة عيسى عليه السلام حيث بشر به في الإنجيل، ويحكي لنا القرآن العظيم هذه البشارة فيقول: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

(الصف:٦).

ولذلك لما سُئِل النبي ﷺ فقيل له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى»[١]. بُعِث الرسول محمد ﷺ بما بُعِث به الأنبياء والمرسلون من قبله، بهذا الدين القويم، بالإسلام الذي هو دين السماء، والذي هو دين الأمم السابقة من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، فنوح عليه السلام كان مسلمًا ومن اتبعوه كانوا مسلمين، كما قال عن نفسه في سورة يونس: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (يونس:٧٢).

وإبراهيم وإسماعيل كانا مسلمين ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ (البقرة:١٢٨)، ويعقوب وبنوه كانوا مسلمين ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٢)، وموسى وقومه كانوا مسلمين ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ (يونس:٨٤)، ويوسف من قبل كان مسلمًا ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١)، وعيسى وقومه كانوا مسلمين، ولهذا قال الحواريون: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢)، ومحمد ﷺ كان أول المسلمين، ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وأمته خير أمة في المسلمين.

ولكن هذه الأمة العزيزة على الله تعالى بنبيها الكريم قد منحها الله مرتبة سامية خاصة بها، وهي الإيمان، فكان كل نداء الله لها بالقرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يقل لها أبدًا: يأيها الذين أسلموا، ذلك لأنها انفردت بالإيمان دون الأمم السابقة؛ لأنها آمنت بجميع الأنبياء دون تفرقة في الإيمان، ومن هنا قال الله عز وجل لها: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ (آل عمران:١١٩)، بينما وصف كل أمة من الأمم السابقة في سورة الشعراء بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير؛ ٢/ ٢٥٦.

عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الآيات الكريمة بالترتيب: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦٠، ١٧٦).

ذلك لأن التكذيب بنبي واحد يعتبر تكذيبًا بجميع المرسلين، ومن هنا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾

(النساء: ١٥٠، ١٥١)

وكانت بعثة المصطفى ﷺ على حين فترة من عيسى ابن مريم الذي كان آخر أنبياء بني إسرائيل، وكانت هذه الفترة أطول فترة بين نبي ونبي، فقد كانت المسافة بين ولادة نبي الله عيسى -عليه السلام- وولادة الرسول ﷺ الأعظم حوالي خمس مئة وواحد وسبعين عامًا، ومن هنا اقتضت حكمة الله عزَّ وجل أن تكون رسالة النبي ﷺ خاتم الرسالات؛ لأنها جاءت بعد فساد قد استشرى في العالمين، وبعد أن وصل الأمر بالإنسانية والبشرية إلى حد الظلم والبغي، والاستبداد والطغيان، بل لقد وصل الأمر إلى حد فقدان العواطف الإنسانية بين مختلف أجناس البشر، بل وفقدت العواطف الأبوية عند الأبناء، فقد كانت البنات توأد بيد الآباء مخافة العار، والأولاد يقتلون بيد الآباء مخافة الفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩) فأعلن القرآن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال النبي ﷺ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِن هذِه البَنَاتِ بشيءٍ كُنَّ له سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[٢]، وقال: «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده (يعني الذكور) عليها أدخله الله الجنة»[٣].

وكانت الحروب تشن وتقوم وتشتعل لأتفه الأسباب وتظل بذلك عشرات السنين، والناس في هذه الهمجية يعيشون وكأنهم من وحوش الغاب، لا عطف ولا رحمة، ولا مودة ولا إخاء، ولا عهد ولا وفاء، ولهذا اقتضت إرادة الحق تبارك وتعالى أن يخلص الإنسانية وأبناءها من هذه الأغلال فكانت بعثة الرسول الأعظم هي سياج الأمن والأمان، على يد النبي العدنان، ورسول السلم والسلام ﷺ.

لقد اصطفاه الله عزَّ وجل من أصلاب طاهرة، وفضَّله على سائر العالمين، يقول رب

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٩٠٥.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، عن عبدالله بن عباس برقم: ٥١٤٦.

العزة والجلال في كتابه الكريم: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (البقرة:٢٥٣)، والمراد بمن فضل درجات، هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وهو القائل في حديثه الشريف: «إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنانَةَ مِن ولَدِ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ»(٤).

حقًّا، اصطفاه ربه عز وجل وصنعه على عينه، وأعطاه الشيم الرفيعة والسجايا السامية، فلم يصنع في حداثته شيئًا قط مما كان يصنعه أترابُه من بني قومه وجلدته، وإنما تميَّز عنهم جميعًا بالصدق والأمانة حتى لقب «بالصادق الأمين»، كما تميَّز أيضًا بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل حتى أنعم الله عليه بالرسالة، ولهذا قال أهل العقل والإنصاف من قومه: إنه الصادق الأمين، ما جربنا عليه من كذب أبدًا، ولما سأل (هرقل) عنه أبا سفيان ابن حرب: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان وهو يومئذ على جاهلية قومه: لا، فما جربنا عليه كذبًا أبدًا.

قال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وهكذا استنتج هذا الملك من مقامه العظيم ﷺ في الصدق وهو ثمرة العفة واحترام العقل وشرف النفس أن محمدًا الصادق صادق في تبليغه عن الله رب العالمين.

لقد جاء ﷺ برسالة سامية قررت المساواة بين البشر، وعمقت روح الأخوة الإنسانية، ورفضت أن تضع ميزانًا للخيرية والتفاضل سوى ميزان التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾

(النساء:١)

وقِيل له ذات مرة: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»، وخطب في الناس يوم الفتح، وكان يوم نصر وإكرام، ومظنة الفخر والتعالي، فقال: «إنَّ اللهَ قد أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجاهليةِ وفَخْرَها بالآباءِ إنَّما هو مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ الناسُ كلُّهُمْ بَنُو آدمَ وآدمُ خُلِقَ من تُرابٍ»(٥)، ونهاهم عما يداخل ذلك من مظاهر الترفع التي تنخرم بها مواثيق المساواة: «فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي فَلَا تَقُومُوا كَمَا يَفْعَلُ الْعَجَمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا»(٦).

ولم يكن هذا المبدأ أو غيره من المبادئ الإنسانية التي جاء بها الإسلام ولم يسبقه إليها قانون حضاري لم تكن مبادئ نظرية، ولكنها كانت أوضاعًا عملية، فقد خضعت رقعة فسيحة من المعمورة للحكم الإسلامي، شملت أجناسًا مختلفة وألوانًا متباينة، وعاش الجميع في ظل

(٤) صحيح مسلم ؛ برقم : ٢٢٧٦.

(٥) سنن الترمذي عن أبي هريرة برقم: ٣٩٥٥.

(٦) مسند أحمد عن أبي أمامة ، برقم: ٢٢٢٠١

الحكم الإسلامي إخوانًا متحابين ذابت من بينهم فوارق الجنس واللون والطبقية المتحكمة، وإنما كان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

كان هذا المبدأ العظيم واقعيًّا في السلوك والتطبيق، خضع لنظمه وتعاليمه السامية المجتمع الإسلامي، وانتشر في بلدان وأوطان كثيرة دخلها الإسلام بجوهره قبل أن يدخلها المسلمون فاتحين.

إن الدين الذي جاء به صاحب التشريع منهج إلهي للحياة البشرية، وقوة بناءة، وحركة دافعة إلى تشييد الحياة، وهذا المنهج يتم تحقيقه في الحياة بجهد الناس أنفسهم، وفي حدود طاقتهم، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه وتوضيحه لهم، وإنما بالعمل على مقتضى تعاليمه، عمل العقل وعمل الجسم.

وعمل العقل يكون بفهم نصوصه والتعرف على مقاصده في ضوء واقع الحياة، حتى يساير مصالح الناس، وهذا يقتضي التزود بالعلم والمعرفة؛ لذلك وجه الرسول ﷺ عنايته بالعلم والتزود به، كما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١-٥)

وعمل الجسم بالسير في مناكب الأرض ابتغاء للرزق واستثمار كل ما فيها من خيرات، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٧٧)، فقد قرن الله تعالى العمل بالعبادة، ونبه إلى أنه لا ينبغي أن يصرف التوغل في العبادة على ترك شئون الدنيا وتعميرها، فيقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك: ١٥) فربط الرزق بالسعي في طلبه والعمل من أجله.

وبعد، فقد اعتاد المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وعلى اختلاف هيئاتهم ومشاربهم أن يحتفلوا بذكرى مولد المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه-، تمجيدًا لشأنه، وتعظيمًا لرسالته، ومن حقه على أمته أن تحتفي به دائمًا في سائر لحظات حياتها، فهو الذي انتشلها من دياجير الظلام، إلى نور الهداية، والخير والعدل، وجعلها أعلى الأمم قدرًا، وأسماها منزلة، وأعزها جانبًا، وأعظمها شأنًا، وأقواها ركنًا، وأنبلها خلقًا.

ولعل خير ما نقدمه لرسولنا الكريم ﷺ في يوم مولده الأغر الميمون، أن نهتدي بهديه ونستن بسنته سلوكًا وتطبيقًا عمليًّا، فهو القائل: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي»(٧) وحتى نكون من الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠).

---

(٧) رواه الإمام مالك في الموطأ ٣٣٣٨.